محاضرة رقم 01

مدخل إلى علم البلاغة

بدأ الاهتمام بالفصاحة والبيان عند العرب منذ أمد طويل، وبالبلاغة باعتبارها فنا يقوم على عليه الأدب الرفيع، فقد كان الشاعر الجاهلي يمنح قصيدته قدرا عاليا من العناية ويهتم اهتماما كبيرا بتجويد الأسلوب فيها وتحسينه ليصل بها إلى المكانة أو الدرجة التي تمكنه من نيل رضا السامع والناقد كالنابغة الذبياني في العصر الجاهلي. أما بعد نزول القرآن فكان الاهتمام بالبلاغة لدراسة القرآن وسر إعجازه، ومن هذا المنطلق تبلور علم البلاغة وألف فيه الكثرة الكاثرة من المصنفات والكتب.

أولا: **مفهوم البلاغة لغة واصطلاحا:**

1.1. لغة: يقول تعالى: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (الطلاق الآية 2)، بلغن هنا تعني الوصول، أي قاربنه ووصلن إليه.

فقد جاء في لسان العرب: بلغ الشيء يبلغُ بلوغا، وصل وانتهى، وأبلغه إبلاغا وبلّغه تبليغا والبلاغة الفصاحة، والبَلَغُ البَلْغُ: البليغ من الرجال، رجلٌ بليغٌ وبلْغٌ: حسن الكلام فصيحه ويبلغ بعبارة لسانه كُنَهَ ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بلُغَ بلاغةً أي صار بليغا، وقول بليغ: بالغ وقد بَلُغَ، والبلاغات الوشايات. والبلاغة تقع صفة للكلام والمتكلم من باب التوسع، وتعرف البلاغة في المعجم الوسيط أنها حسن البيان وقوة التأثير.

2.1. اصطلاحا: البلاغة صفة يتصف بها الكلام والمتكلم فقط، دون المفردة أو اللفظة، فلا يقال بلاغة الكلمة، ولعل السر في ذلك أن الكلمة قاصرة بمفردها عن الوصول بالمتكلم إلى مراده ومقاصده.

اهتم العرب كثيرا بهذا بعلم البلاغة وأولوه الاهتمام والرعاية حتى وصل إلينا اليوم على صورته الناضجة، وقد أعطوا له مفاهيم وتعاريف متعددة، ولعل أكثرها شيوعا بين الدارسين، وأقربها إلى جوهر البلاغة تعريف الخطيب القزويني: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته". وبالتالي فالكلام البليغ هو الكلام الواضح المعنى، الفصيح العبارة، الملائم للوضع الذي يُطلَق فيه، وللأشخاص الذين يخاطبون به.

ومعنى مقتضى الحال هو وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم وأفهامهم، ومراعاة المواقف والمقامات المختلفة التي يقال من أجلها الكلام. فالبلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحال المخاطب به لتأثير عليه.

-تعريف الجاحظ: " لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك".

-تعريف ابن المقفع: " اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة"

ونبسط مفهوم البلاغة بقولنا: "هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب، ع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون.

بلاغة الكلام :هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. أي أن يكون الكلام:

-فصيحًا :خاليًا من العيوب اللفظية والمعنوية (مثل الغرابة، أو التعقيد)

-مطابقًا لمقتضى الحال :أي مناسبًا للسياق، والموضوع، والحالة النفسية للمخاطَب.

قال **السكاكي**: "البلاغة هي أن يبلغ الكلام في التأثير مبلغًا واضحًا، مع مطابقته لمقتضى الحال".

وبهذا تستند **بلاغة الكلام** على ثلاث دعائم هي:

- اللفظ الفصيح
-حسن النّظم والتأليف
- الأسلوب المناسب للمخاطب

أما **بلاغة المتكلم**، فهي ملكة، أي صفة ثابتة في ذات المتكلم، يستطيع بها تأليف كلام بليغ، يوصف المتكلم بالبلاغة إذا كان قادرا على التعبير عن مقصوده بكلام فصيح مطابق لمقتضى الحال، في أي غرض أراد وأي وقت شاء، وإنما يكون كذلك إذا كان فصيحا، محيطا بأساليب العرب، عارفا بسنن تخاطبهم، فيجعل "لكل مقام مقالاً، ولكل موقف خطاباً".

ولما كان كل كلام بليغ لابدّ أن يكون فصيح المفردات والجمل كان كل كلام بليغ كلاما فصيحا، وكل متكلم بليغ متكلما فصيحا، لكن قد يكون الكلام فصيح ولا يكون بليغا، لأن الفصاحة أعم من البلاغة، فكل بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ، فالكلام الفصيح لا يكون كلاما بليغا حتى يكون مطابقا لمقتضى حال المخاطب به.

3.1. عناصر البلاغة

1. صحة الكلام نحويا وصرفيا، والالتزام بقواعد اللغة

2. صحة المعنى، والابتعاد عن التعقيد في المعنى واللفظ.

3. انتقاء الألفاظ والعبارات الجميلة، التي يدرك جمالها الحس المرهف، والذوق الرفيع لدى البلغاء

4. اختيار المعاني الجميلة واللطيفة، وتقديمها في قوالب ذات جمالٍ

5. تزيين الكلام بالمحسنات التي تستثير إعجاب المخاطبين.

ثانيا: الفصاحة

1. مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحا:

يقول الله تعالى: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ طه الآية 34. أي أبينُ مني منطقا وأظهر مني قولاً.

والفصاحة في اللغة خلوص الشيء مما يشوبه، واصله في اللبن، يقال: فَصُحَ اللبن، إذا ذهب عنه اللبأ أي الرغوة التي تغطي سطحه، ومعنى خلوص الشيء مما يشوبه كونه واضحا بيناً، واستعير للدلالة على البيّن والواضح من القول. ويقال أفصح الصبي في منطقه إذا بان وظهر كلامه، فالمعنى اللغوي للفصاحة من خلال هذه الأمثلة هو البيان والوضوح فكل ما كان بيّنا واضحا، فهو فصيح، سواء أكان كلاما أم غيره.

أما الفصاحة في الاصطلاح، الظهور والبيان، والكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك. فهي الألفاظ البينة الظاهرة المألوفة في الاستعمال بين الكتاب والشعراء، وهي تقع وصفا للكلمة والكلام والمتكلم.

2. فصاحة الكلمة

تكون الكلمة فصيحة إن خلت من هذه العيوب:

1.2. تنافر الحروف: هو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السامع وصعوبة أدائها باللسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج وهو نوعان:

أ.شديد في الثقل **كالظّش** (للموضع الخشن)، ونحو: **هُعْجُع** (لنبت ترعاها لإبل) من قول أعرابي: تركتُ ناقتي ترعى الهُعْجع.

ب. وخفيف في الثقل، **كالنقنقة** (صوت الضفدع) **والنُقاخ** (للماء العذب الصافي)، ونحو: **مستشزرات** (بمعنى مرتفعات) من قول امرئ القيس يصف شعر ابنة عمّه:

غَدائِرُها **مُستَشزِراتٌ** إلى العُلا تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنّىً وَمُرسَلِ

ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم، والحس الصادق الناجمين عن النظر في كلام البلغاء، وممارسة أساليبهم.

2.2. الغرابة في الاستعمال: فهو كون الكلمة غير ظاهرة المعنى (وحشية)، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء، لأن المعول عليه في ذلك استعمالهم. ومن ذلك: (تكأكأتم وافرنقعوا، بمعنة اجتمعتم، وابتعدوا) في قول عيسى بن عمرو النحوي : 'ما لكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنّة، افرنقعوا عنّي". فإن هاتين الكلمتين لعدم تداول استعمالهما في لغة العرب، لم يذكرهما من اللغويين إلا من شذّ

3.2. مخالفة القياس:

كون الكلمة شاذة، غير جارية على القانون الصوفي المستنبط من كلام العرب، بأن تكون على خلاف ما ثبت فيها عن العرف العربي الصحيح، مثل: "الأجلل" في قول أبي النجم:

الحمدُ للهِ العليّ الأجْلَلِ الواحدِ الفردِ القديم الأوَلِ

فإن القانون الصرفي يقتضي أن يقال الأجلّ، لاجتماع المثلين، وتحرك الثاني وهو يقتضي الإدغام.

وكقطع همزة الوصل "اثنين" في قول جميل:

لا لا أرى إثنين أحسنَ شيمةً على حدثان الدّهرِ منّي ومن جَمل

بدلاً من "ألا لا أرى اثنين أحسن شيمةً" التي تتضمن همزة وصل قياسية، والقطع هنا جاء لملاءمة الوزن الشعري في هذا البيت الشهير، وليس قاعدة مطردة .

وخلاصة القول إن فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس، ومن الابتذال والضعف، فإن لحق بالكلمة عيب من هذه العيوب السابقة وجب نبذها واطراحها.

3. فصاحة الكلام:

تتحقق فصاحة الكلام بعد فصاحة مفرداته بسلامته من أمور أربعة وخلوه منها، وهي:

1.3. تنافر الكلمات مجتمعة وهو أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان في حالة اجتماعها، وإن كانت كلّ واحدة منها سهلة النطق إذا أخذت لوحدها ونطقت مستقلة، كالبيت الذي نجده شديد الثقل:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرُ وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

2.3. ضعف التأليف: أن يكون الكلام جاريا في تركيبه على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو عند جمهور النحويين، كرجوع الضمير إلى متأخر لفظًا ورُتبة؛ مثل: ضربَ غلامُه زيدًا، يقصد: إن زيدًا ضربَه غلامُه. كوصل الضميرين وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة، كقول المتنبي:

خَلَتِ البِلادُ منَ الغَزالَةِ لَيْلَها فأعاضَهاكَ الله كَيْ لا تَحْزَنَا

وينتج عن ضعف التأليف التعقيد بنوعيه: اللفظي والمعنوي

3.3. التعقيد اللفظي والمعنوي

أ. اللفظي: هو أن يكون في الكلام صعوبة في فهم المعنى المراد بسبب الخلل الواقع في نظم أو تركيب الكلام، وذلك بأن تكون ألفاظه على خلاف ترتيب المعاني بالتقديم والتأخير، والفصل بين المتلازمين، أو نقص منها بالحذف الموجب للفساد، وهو مذموم لأنه يحدث اختلالا في المعنى واضطرابا، من وضع ألفاظه غير المواضع اللائقة به، مثل: ما قرأ إلا واحدًا محمدٌ مع كتابًا أخيه، والأصل: ما قرأ محمدٌ مع أخيه إلا كتابًا واحدًا.

ومنه قول الفرزدق من قصيدة يمدح بها إبراهيم المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

ما مثله في الناس إلا مملكا ... أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

البيت كما ترى غير فصيح لضعف تأليفه الناشئ عن تعقيد ألفاظه وصعوبة استخلاص معناه . فالمعنى الذي حاول الفرزدق أن يعبر عنه في هذا البيت هو :وما مثله- يعني الممدوح- في الناس حي يقاربه- أي أحد يشبهه في الفضائل إلا مملكا- يعني هشام بن عبد الملك بن أخت الممدوح- أبو أمه- أي أبو أم هشام -أبوه- أي أبو الممدوح. فالضمير في "أمه" للمملّك، وفي "أبوه" للمدوح. فالشاعر في البيت قد فصل بين "أبو أمه" وهو مبتدأ، و "أبوه" وهو خبر المبتدأ بأجنبي وهو "حي" . فالخلل في نظم كلمات البيت بالتقديم والتأخير، وبالفصل بين الكلمات التي يجب تجاورها واتصال بعضها ببعض قد جعل الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد.

ب. التعقيد المعنوي: وهو إساءة استعمال الكلمة في غير معناها الحقيقي؛ مما يؤدي إلى التباس الأمر على السامع. أي هو أن يكون في الكلام صعوبة في فهم المعنى المراد، لعدم انتقال الذهن بسهولة من المعنى الأصلي الموضوع له اللفظ إلى المعنى الملابس له. المراد للمتكلم، وذلك لعدم تعارف الاستعمال مع خفاء القرائن، كما لو قلت "نشر الملك ألسنته في المدينة" مريدا جواسيسه. ومن هذا الباب قول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فالمعنى الذي قصد الشاعر التعبير عنه في هذا البيت هو :أطلب وأريد البعد عنكم أيها الأحبة لتقربوا، إذ من عادة الزمان الإتيان بضد المراد، فإذا أريد البعد يأتي الزمان بالقرب، وكذلك أطلب الحزن الذي هو لازم البكاء ليحصل السرور بما هو من عادة الزمان .فالشاعر أراد هنا أن يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود، لظنه أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر. وقد أخطأ الشاعر في مراده إذ جمود العين هو خلوها من الدمع أو بخلها بالدمع الذي هو لازم البكاء عند إرادة البكاء منها، إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن "يقال له جمدت عينك"، بل المعروف عندهم أن جمود العين إنما يكنّى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كقول أبي عطاء يرثى ابن هبيرة:

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط ... عليك بجاري دمعها لجمود

إذن فالجمود لا يكون كناية عن السرور بل عن البخل، وبهذا يكون الانتقال من جمود العين إلى بخلها بالدموع، لا إلى ما قصده الشاعر من السرور

.فالشاعر، كما نرى، استعمل الكلمات في غير معانيها الحقيقية، أو بعبارة أخرى لم يكن موفقا في اختيار الكلمات المعبرة عن معناه تعبيرا جليا واضحا، ومن ثم عقد المعنى أو وقع في التعقيد المعنوي الذي أخلّ بفصاحة البيت.

وخلاصة القول إن فصاحة الكلام تكون بخلّوه من تنافر كلماته، ومن ضعف تأليفه، وتعقيد معناه، ومن وضع ألفاظه من غير المواضع اللائقة بها.

4. فصاحة المتكلم:

هي الملكة التي يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح في أي غرض كان، فيكون قادرا على بصفة الفصاحة الثابتة في نفسه على صياغة الكلام، متمكنا من التصرف في ضروبه، بصيرا بالخوض في جهاته ومناحيه، وتحصل الملكة بطول ممارسة الكلام الفصيح، بأن يكون في بيئة عربية فصيحة، أو يمرن نفسه بكلمات الفصحاء كثيرا، كل ذلك وللذوق مدخل عظيم.

5. **الحدود بين البلاغة والفصاحة:** لم يفرق كثير من العلماء بين البلاغة والفصاحة، وفي رأيهم تدلان على مقصود واحد، لكن هناك حدود تفصل بين البلاغة والفصاحة، منها: تختصّ البلاغة بالألفاظ والمعاني، بينما مجال الفصاحة هو الألفاظ فقط. تراعي البلاغة الأسلوب المناسب للمخاطبين بينما تختصّ الفصاحة بالكلمة المفردة والكلام المركّب. الفصاحة شرط أساسيّ من شروط البلاغة، أما من شروط الفصاحة: الوضوح والبيان، الألفة والانسجام، التوافق التام مع قواعد النحو والصرف. وأليكم هذه الحدود ممثلة في الجدول الآتي:

البلاغـــــــــــــــــــــــة	الفصاحـــــــــــــــــــــــة
- تختصّ البلاغة بالألفاظ والمعاني	- مجال الفصاحة هو الألفاظ فقط
- تراعي البلاغة الأسلوب المناسب للمخاطبين	- تختصّ الفصاحة بالكلمة المفردة والكلام المركّب
- الفصاحة شرط أساسيّ من شروط البلاغة	- من شروط الفصاحة: الوضوح والبيان، الألفة والانسجام، التوافق التام مع قواعد النحو والصرف.
- تهدف البلاغة إلى التأثير في نفوس المخاطبين	

ثالثا: الفرق بين البلاغة والبيان:

علم البيان عند المتقدمين، أي القدامى هو علم جامع للعلوم الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وعليه قال الجاحظ: "البيان اسمٌ جامعٌ لكلّ شيءٍ كشف لك عن معنى، ذلك المعنى لا يُفهم إلا به... وكلّ شيءٍ أدّاك إلى معنى فهو بيان." البيان والتبيين، ج1، ص 76. وهو كذلك "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير". والبيان حسب الجاحظ أوسع من البلاغة لأنه عند الجاحظ أيضًا، في كتابه البيان والتبيين، "البيان" يشمل كل وسائل الإيضاح :اللفظ، الإشارة، الكتابة، البلاغة، السكوت المفهوم. وقول ابن المعتز: "البيان ترجمان القلوب وصقيل العقول". وبعض العلماء يسمي العلوم الثلاثة بالبديع لما فيها من بديع الصنعة، كما يسمي بعضهم الأول علم المعاني، والأخيرين علم البيان.

وتسمية علم البيان تشير إلى مرحلة مبكرة في نشأة البلاغة قبل أن يتم تقسيمها إلى العلوم الثلاثة، ولم تكن محصورة في الصور البيانية أو المحسنات، بل تشمل سلامة التعبير، وضوح المعنى، ومراعاة المقام.

رابعا: أهمية البلاغة الأدبية والجمالية

علم البلاغة في اللغة العربية ليس مجرد ترف لغوي أو علم نظري، بل هو أحد أرقى أدوات التعبير وأعظم وسائل التأثير، وله قيمة أدبية وجمالية عالية، ظهرت بوضوح في الشعر، والخطابة، والقرآن الكريم، والنثر الفني.

كما أن أهمية العربية استنبطت من القرآن الكريم لفهم حلاوة معانيه، ومقاصده، وبيان أسراره وأحكامه، وأخباره، وتفسير آياته الكريمة ومعرفة ما فيها من براعة وعذوبة في اللفظ والتراكيب البلاغية، فهذا العلم يعتبر الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم لذلك يؤدي الإغفال عنه إلى عدم إدراك إعجاز النظم القرآني، وبالتالي لابدّ من الإلمام بقواعد علم البلاغة التي تجعل الإنسان فصيحا ومتكلما بلسان بليغ.

أما القيمة الأدبية لعلم البلاغة، فتتمثل في:

- **أداة لصناعة النص الأدبي المؤثر:** البلاغة تمنح الكاتب أو الشاعر القدرة على تشكيل اللغة بأسلوب فني رفيع. وتُمكّنه من صياغة المعاني بطريقة تمسّ وجدان المتلقي وتؤثّر فيه نفسيًا وعاطفيًا. مثل قول المتنبي:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ====وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

هنا البلاغة ليست فقط في المعنى، بل في تركيب الجملة، والمقابلة، والوزن، مما يعطي البيت عمقًا أدبيًا وبُعدًا إنسانيًا.

-تميز الأسلوب الأدبي الراقي: الفرق بين الكلام العادي والكلام الأدبي هو البلاغة. النص الأدبي يُقاس بقدرته على التجميل والتأثير والإيحاء، وهو ما توفّره علوم البلاغة. والبلاغة تمنح الكاتب القدرة على الإيحاء لا التصريح، وعلى الإيجاز لا الإطناب، وعلى التحليق لا التسطير.

وتتمثل القيمة الجمالية للبلاغة في:

-التصوير الفني للمعاني (من خلال علم البيان): البلاغة تُحوّل المعنى الذهني المجرّد إلى صورة فنية مرئية محسوسة، فمثلًا: الاستعارة والتشبيه والكناية تُعطي حياة وجمالًا للمعنى. خذ قوله تعالى: **[فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ الرعد الآية 17.**

صورة مدهشة لمعنى فلسفي: الباطل مثل الزبد يذهب، والحق يبقى. وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر. هذه صورة بيانية فنية تحمل قيمة جمالية عالية، وليست مجرد بيان منطقي.

- تنويع الأسلوب وتجنب الرتابة (علم البديع)

البلاغة تضيف عناصر فنية الجناس والطباق والمقابلة والسجع، هذه الزينة الأسلوبية تُضفي على الكلام جرسًا موسيقيًا وجاذبية لفظية تُمتّع الأذن والعقل معًا.

وللبلاغة قيمة عقلية وفكرية، فهي: تُنمّي الذكاء اللغوي، وتدرّب العقل على الربط بين المعاني والصور. وتُعزّز المهارات الخطابية والقدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، فالبلاغة في فن الإقناع. تُعلِّم كيف يُقال الكثير بالقليل، أي الإيجاز، وكيف يُفهم السياق والمقام.